

المثل الأعلى.. منطلق لبناء الإنسان



إنّ المحور الذي يستقطب عمليّة البناء الداخلي للإنسانية هو (المثل الأعلى)، فهو الذي يُحدِّد الغايات التفصيليّة التي تُعتبر محرّكات للتأريخ. فيقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشرية صالحاً، وعالياً، وممتدّاً، تكون الغايات صالحة وممتدّة، ويقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدوداً أو منخفضاً، تكون الغايات المنبثقة عنه محدودة ومنخفضة أيضاً.

والمثل الأعلى هو نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية، وهو الذي يقدِّم وجهة النظر العامة إلى الحياة والكون، ومن خلال الطاقة الروحية التي تتناسب مع ذلك المثل الأعلى، ومع وجهة نظرها إلى الحياة والكون. تحقّق الجماعة البشرية إرادتها للسير نحو هذا المثل وفي طريقه. وكلّ جماعة اختارت مثلها الأعلى، فقد اختارت في الحقيقة سبيلها وطريقها، ومنعطفات هذا السبيل وهذا الطريق، قال الله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمُلَاقِيهِ) (الإنشفاق/ 6).

هذه الآية الكريمة تضع الله سبحانه وتعالى هدفاً أعلى للإنسان، والإنسان هنا بمعنى الإنسانية ككل،

فالإسانية بمجموعها تكدح نحو الـ سبحانه وتعالى، وهذا السير ليس اعتيادياً، بل هو ارتقائي، تصاعدي، تكاملي، تسلقي، فالإنسانية حينما تكدح نحو الـ، فإنّما هي تتسلق إلى قمم كمالها وتكاملها وتطورها إلى الأفضل باستمرار. وكلّ سير وكلّ تقدّم للإنسان في مسيرته التاريخية الطويلة الأمد، فهو سير وتقدّم نحو الـ سبحانه وتعالى.

فحينما تتقدّم الإنسانية في هذا المسار واعيةً لمثلها الأعلى وعياً موضوعياً، يكون التقدم تقدّمًا مسؤولاً، يكون عبادةً - بحسب لغة الفقه - حتى أولئك الذين ركضوا وراء سراب اجتماعي، وراء المثل المنخفضة، حينما يصلون إلى هذا السراب لا يجدون شيئاً ويجدون الـ سبحانه وتعالى فيوفيههم حسابهم.

الـ سبحانه وتعالى هو المطلق، وبحكم كونه كذلك، فهو موجود على طول الطريق، كما أنّهُ يُمثّل نهاية الطريق، ويقدر زخم الطريق والتقدّم فيه، يجد الإنسان مثله الأعلى، وبحكم مطلقية الـ، فالطريق أيضاً لا ينتهي، بل هو اقتراب مستمرّ بقدر التقدّم الحقيقي نحو الـ، وهو اقتراب نسبي لأنّ المحدود لا يصل إلى المطلق والفسحة بينهما لا متناهية، أي أنّهُ تركّ له الإبداع إلى اللانهاية.

- أثر المثل الأعلى الحقيقي على المسيرة البشرية:

حينما توفّق المسيرة البشرية بين وعيها على المسيرة وبين الواقع الكوني لهذه المسيرة، بوصفها سائرة ومتّجهة نحو الـ، سوف يحدث تغيير كمي وكيفي على هذه المسيرة، أي أنّ مجال التطور والإبداع والنمو قائم دائماً وأبداً ومفتوح للإنسان باستمرار ومن دون توقّف. وحين يُتبنى هذا المثل الأعلى، فسوف تُمسح من الطريق كلّ الآلهة المزوّرة وكلّ الأصنام والأقزام المتصدّمة والتي تقف عقبة بين الإنسان وبين وصوله إلى الـ سبحانه وتعالى، وهي لا تصنع الشعور بالمسؤولية، بل تصنع قوانين وعادات كلّما وجد الإنسان مجالاً للتخلّص منها تحلّص.

- شروط تبني المثل الأعلى الحقيقي:

تعطينا عقيدة التوحيد رؤية واضحة للمثل الأعلى، تُعلِّمنا أن نتعامل مع صفات الله، وأخلاقه، لا بوصفها حقائق عينية منفصلة عنه، وإنما نتعامل معها بوصفها رائداً عملياً وهدفاً لمسيرتنا العملية، ومؤشرات على الطريق الطويل للإنسان نحو الله سبحانه وتعالى.

ولابد أيضاً من طاقة روحية مستمدّة من هذا المثل الأعلى، لكي تكون رصيдаً ووقوداً مستمرّاً للإرادة البشرية على مرّ التاريخ، وهذا الوقود يتمثّل في عقيدة يوم القيامة التي تُنعش إرادة الإنسان وتحفظ له دائماً قدرته على التجديد والإستمرار.

كما لابدّ من صلة موضوعيّة بين الإنسان وبين مثله الأعلى، وهي تجسّد في النبي ودور النبوة، فالنبي هو ذلك الإنسان الذي يُركّب بين الشرط الأوّل (التوحيد) والشرط الثاني (المعاد).

وعندما تدخل البشرية مرحلة يُسمّى بها القرآن الكريم بمرحلة الإختلاف التي تنتصب فيها المثل المنخفضة أو التكرارية، فلا بدّ من معركة ضد هذه الآلهة المُزيّفة، ولا بدّ من قيادة تتبنّى هذه المعركة وهي الإمامة، ودور الإمامة يندمج مع دور النبوة ولكنّه يمتدّ أيضاً حتى بعد النبي إذا ترك النبي الساحة وبعدّه لا تزال المعركة قائمة.

وبكلمة مختصرة، فإنّ المثل الأعلى يوجد المجتمع البشري ويلغي كلّ الفوارق والحدود، باعتبار شمولية هذا المثل الأعلى، فهو يستوعب كلّ الحدود وكلّ الفوارق، ويهضم كلّ الاختلافات، ويصهر البشرية كلّها في وحدة متكافئة، لا يوجد ما يميّز بعضها عن بعض، لا من دم ولا من جنس ولا من قومية ولا من حدود جغرافية أو طبقية. يقول تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّمَاتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء / 92).